على مشارف الواقع

تأليف الشيخ: محمود شاكر

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شاكر، محمود

على مشارف الواقع - الرياض.

٦٠ص؛ ١٤ X ٢١ سم

ردمك X - ٤٩١ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١-العالم الإسلامي- الأحوال السياسية ٢- العالم الإسلامي- الأحوال الاجتماعية ٣- العالم الإسلامي- الأحوال الاقتصادية أ- العنوان

ديوي ٩٥٣ ١٩/٠٢٥٧

ردمك X - ٤٩١ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٩/٠٢٥٧

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ ، رسولِ اللهِ ، وخاتمِ النَّبيِّين ، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين . وبعدُ :

فنحنُ لاندرسُ التاريخَ للتَّمتُّعِ بالأخبارِ ، كما نقرأُ النوادرَ والطرفَ ، ولا من أجلِ الاطِّلاعِ ومعرفةِ الأخبارِ مجرَّدةً عن كلِّ شيءٍ ، ولا للتَّباهي والتَّفاخرِ وإظهارِ العلمِ ، ولكن نقرأُ التَّاريخَ ، ونهتمُّ بهِ ، لأخذِ العبرةِ ، فنسيرُ على دربِ التَّقدُّمِ والرِّفعةِ ، ونتجنَّبُ مواقعَ التَّراجعِ ، ومواضعَ الذلَّة . (قدْ خلتْ منْ قبلِكُمْ سُنَنٌ فسيرُوا في الأرضِ فانظرُوا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين * هذا بيانٌ للنَّاسِ وهدىً وموعظةٌ للمُتَّقين) . آل عمران : ١٣٧ - ١٣٨ .

لقد كان في تاريخنا الإسلاميِّ مراحلُ ارتفعتْ فيهِ الأمةُ ارتفاعاً يكادُ يكونُ شاقولياً ، نتيجةَ اعتناقِها الإسلامَ ،

الذي أعزَّها ، ورفعَها إلى الأَوْجِ ، وأبعدَها عن بؤرِ المهاوي والسقوطِ، ثمَّ مرَّتْ عليها مراحلُ هَوَتْ فيها ، حتى غدتْ مطمعاً للغزاة ، ولا مُقاومةَ تُرتجى منها .

وإذا كنّا نُرجعُ أسبابَ ذلكَ التَّطوُّرِ السَّريعِ الذي تمَّ إلى الإيمانِ القويِّ ، فارتفعتْ المعنوياتُ ، وانطلقتْ كوكباتُ المجاهدين ، ووثبتْ الانطلاقةُ ، واستقامَ المسؤولونَ على الحقِّ ، فاستقامَ النَّاسُ ، واعتدلَ من كانَ في أرضِ المسلمين ، فإننا نعرفُ أيضاً أسبابَ التَّراجعِ والتَّأخُّرِ الذي نتجَ عن ضعفِ الإيمانِ ، حتى فترتْ الرُّوحُ المعنويةُ ، وبردتْ الهممُ ، وسكنَ الجهادُ ، وتوقَّفَتْ معهُ الفتوحاتُ ، وترنَّحَ المسؤولونَ ، فاهتزَّ النَّاسُ ، وخَمَدَتْ شُعْلَةُ الانطلاقة .

ولعلَّنا نستطيعُ أن نعطيَ لمحات سريعةً شاملةً لتلكَ السَّقَطَاتِ المتتاليةِ التي أدَّتْ إلى الرُّكودِ ، فسبَّبَتْ الخمولَ الذي لاتزالُ الأُمَّةُ تئنُّ منهُ ، ويُريدُ المخلصونَ أن يتخلَّصُوا من آثارِهِ ، فمعرفةُ مواقعِ الزَّلَلِ تُبعدُ القدومَ نحوَها ، والعلمُ بنقاطِ التَّردِّي يُجَنِّبُ الإقبالَ إليها ، والسَّيرُ بالطَّريقِ السَّليمةِ التي تُوصلُ إلى السُّموِّ . وربَّما تُساعدُ هذهِ اللَّقطاتُ - بإذنِ اللَّهِ - على الخلاصِ ممَّا نُعاني ، والبُعْدِ عن

الوسائلِ التي نتَّخذُها ، والدّروبِ التي نسيرُ فيها ، فنتجنَّبُ سقَطَاتِ التَّردِّي ، وننطلقُ نحوَ السَّعادةِ في الدِّينِ والدُّنيا .

واللَّهَ نرجو أن يوفِّقَنا في موضوعِنا ، وأن يجعلَ فيهِ الخيرَ والفائدةَ ، وأن يسدِّدَ خُطانا في كلِّ عملٍ ، فهو نعمَ المولى ونعمَ النَّصيرِ ، ولاحولَ ولا قوَّةَ إلاّ باللَّهِ العليِّ العظيمِ .

انطلقَ المجاهدونَ في سبيلِ اللَّهِ يَدكُّونَ حُصونَ الظُّلمِ ، ويُزيلون عروشَ الطُّغيانِ ، ويفتحونَ أبوابَ الحرِّيَةِ أمامَ الخلقِ ليتنسَّمُوا السَّعادةَ ، ويُحسُّوا بالرَّاحةِ ، التي طالما حرمَتْهُمْ إيَّاها الأنظمةُ الفاسدةُ ، وأهواءُ المستبدِّينَ القُساة ، والمُتغطرسينَ الجبابرةِ ، الذين سخَّروا الرِّجال ليكونوا عبيداً لهم ، يخدمونَ أغراضَهُمْ ، وتملَّكوا النِّساءَ ليكنَّ إماءً لهم ، يحقِّقُون شهواتِهم بهنَّ . وكان التفاوتُ الاجتماعيُّ ، وكانَ الظُّلمُ الاجتماعيُّ ، سادةٌ يأمرون ، وعبيدٌ يُنفِّذون ويخدمون .

وكانت الفتوحاتُ الكبرى أيامَ الراشدين ، وفي عهدِ الأمويين ، ومع هذهِ الفتوحاتِ جاءتْ الغنائمُ إلى المسلمين ، وسيقتْ إليهم السَّبايا كنظامٍ قائمٍ ، ليس من المصلحةِ العسكريَّةِ ولا السِّياسيَّةِ إزالتُهُ في تلك المرحلةِ

من الصِّراعِ ، خوفاً من ارتفاعِ الرُّوحِ المعنويَّةِ لدى الخصوم ، وانخفاضِها عندَ المسلمين، إن لم يأخذوا به ، إذ يشعرُ الأعداءُ أنَّ ذراريهم في منجى من السَّبيِ ، فلايخافون عليهم ، ويحسُّ المسلمون أنَّ نساءَهم وأبناءَهم في خطرٍ ، لذا فهم في حذرٍ دائمٍ . ومع زيادةِ رقعةِ الفتوحاتِ كانت زيادةُ الغنائمِ ، حتى جلَّتْ عن الوصف ، ومع كثرةِ المعاركِ كثرت السَّبايا ، وارتفعَ عددُ الأرقّاء ، حتى صَعُبَ الحصرُ .

ومع تطبيقِ النِّظامِ الإسلاميِّ في إعمارِ الأرضِ ، وبذلِ الجهدِ ، والحرصِ على العملِ ، أعطتْ الأرضُ خيراتِها ، وأخرجتْ كنوزَها ، وقدَّم العمّالُ صنائعَهم التي تطوَّرتْ حُسناً وفنّاً ، وتفتَّقتْ العبقرياتُ في الصَّنائعِ والحِراثةِ ، وراجتْ التِّجارةُ بالصِّدقِ والجودةِ ، فزادَ الإنتاجُ ، وحَسُنتْ البضاعةُ ، وعمَّ الخيرُ في ديارِ الإسلامِ ، وتوفَّرتْ الحاجياتُ حتى غدتْ ميسورةً مبذولةً ، على حينِ أنَّ البلدانَ الأخرى كانتْ محرومةً منها ، نادرةً فيها ، لايَحصلُ عليها إلاّ عددٌ قليلٌ من الأثرياءِ والمتسلِّطين ، لارتفاعِ أسعارِها ، وقلّةِ كمياتِها، مع رداءةٍ في الصِّناعةِ ، وسوءٍ في المعاملةِ . وعمَّ الأمنُ ، وسادَ الاستقرارُ في

أرضِ المسلمين ، فأقبلَ النَّاسُ نحوَها يبتغون الحياةَ فيها ، يستظلُّون بظلِّ العدلِ ، ويحيَون في واحةِ الأمنِ ، على حينِ كانتْ أرضُ غيرِهم تملأُها الفوضى ، ويعشعشُ فيها الخوفُ من الظُّلمِ الذي يخيِّمُ عليها ، والطُّغيانِ الذي يلفُّها ، لذا فقد هجرتْها أعدادٌ منهم لتأوي إلى حصنِ الأمنِ وموئلِ الخيرِ .

هؤلاءِ الذينَ قدمُوا إلى ديارِ الإسلامِ ، ليعملُوا فيها ، ولينعمُوا بالحياةِ في ظلِّ نظامِها ، وهؤلاءِ العبيدُ الذين سيقُوا إليها ، والسَّبي الذي حُمل إليها ، وقد كبُر ، وأصبح قادراً على العملِ ، هؤلاءِ جميعاً أخذُوا يعملونَ في الأرضِ بتوجيهٍ من أهلِها ، ويشتغلونَ بالصَّنائعِ بإشرافِ أصحابِها ، ويسيرونَ مع القوافلِ والبضائعِ بمراقبةِ ذويها ، فأعطتْ الأرضُ وأثمرتْ ، وتوسَّعتْ الصِّناعاتُ وتقدَّمتْ ، وتنوَّعتْ التِّجاراتُ ، وجاءتْ الأرباحُ، فكثُرَ الثَّراءُ لدى المسلمين ، وأحسُّوا بالكفايةِ والزِّيادةِ ، وشعرُوا بكثرةِ الغنَى ، فأصابَهم التَّرفُ .

وهذه السَّبايا التي حُملَتْ إلى ديارِ الإسلامِ ، وأخذْنَ يعملْنَ في البيوت ، وحملْنَ جزءاً من التَّبعاتِ عن نساءِ المسلمين ، بل إنَّ بعضَ سيِّداتِ المجتمعِ قد ألقَيْنَ عن

كواهلِهِنَّ العبءَ المُلقَى عليهِنَّ ، وحمَّلْنَهُ لهؤلاء القادمات من الجواري والسَّبايا ، وعشْنَ بعدَ ذلك دونَ عملٍ ، يشعرْنَ بالتَّرفِ ، يسيطرُ عليهنَّ الفراغُ ، فيجدْنَ ملأهُ في أمورٍ ثانويةٍ ، أو تافهةٍ .

إنَّ الثَّراءَ شيءٌ ، والتَّرفَ شيٌ آخرُ ، ونِعْمَ المالُ الحلالُ بيدِ الرَّجلِ الصَّالحِ ، يتَّقي اللَّهَ في الحصولِ عليهِ ، ويتَّقي اللَّهَ في إنفاقِهِ ، وفي بدايةِ الدعوةِ وصدرِ الإسلامِ كانَ هناكَ أغنياءُ بينَ المسلمينَ ، يعينونَ إخوانَهُمْ ، ويُجهِّزونَ الجيوشَ ، ويُنفقونَ في طاعة اللَّهِ ، ولعلَّنا نذكرُ أبا بكرٍ الصِّدِّيق - رضي اللَّهُ عنه - ، وكيفَ كان يشتري الأرقَّاءَ الذينَ يدخلون في الإسلامِ ، ويُعتِقُهم في سبيلِ اللَّهِ ، وكيفَ كان هو وعثمانُ بنُ عفَّانَ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ - رضي اللَّهُ عنهم جميعاً - يدفعونَ ويدفعونَ لتجهيزِ الجيوشِ، وكيفَ كانَ سعدُ بنُ عبادةَ - رضي اللَّه عنه - ينفقُ على المحتاجين من المسلمين ، وكيفَ كان ابنُهُ قيسٌ - رضي اللَّهُ عنهُ يستدينُ المالَ باسمِ والدِهِ ، ويشتري الإبلَ ، وينحرُ ليطعمَ المسلمين في الغزوِ ، وقد أصابَهم الجوعُ ،

وهو يعلمُ أنَّ والدَهُ سيسدُّ الدَّينَ (١) .

وانطلقتْ جيوشُ الفتحِ ، وفَتحتْ الدُّنيا لها ذراعَيْها ، وجاءتْ الغنائمُ ، وجاءَ السَّبْيُ ، ولم يتغيَّرْ شيءٌ في طبيعةِ المسلمين ، وأُنفقتْ الأموالُ للإعمارِ ، وصُرفتْ لسعادةِ النَّاسِ جميعاً ، وربما نالَ الفقيرُ منها أكثرَ ممَّا نالَ الغنيُّ، واستفادُوا من الخدمِ للمساعدةِ ، لا لتسليمِهم العملَ ، والجلوسِ دونَ شغلٍ ، ودعَوهُم إلى الإسلامِ ، فأسلمُوا ، فكانُوا جيوشاً رديفةً ، ولولا ذلك لما استطاعُوا بأعدادٍ قليلةٍ خرجتْ من جزيرةِ العربِ أن يفرضُوا هيمنتَهم على الأراضي الواسعةِ التي فتحُوها ، وأن يحمُوها من السُّكّانِ الكثيرين الذين دخلُوا ضمنَ كيانِهم . وأفادُوا من الجواري الكثيرةِ التي ملكَتْها أيمانُهم بإنجابِ الأولادِ ، ولولا ذلك لما استطاعَ سكّانُ الجزيرةِ القليلو العددِ مدَّ الجيوشِ الكثيرةِ باستمرارٍ بما يلزمُها من دعمٍ لتأديةِ المُهمَّةِ المُناطةِ بها .

---

(١) كانت الغزوة بإمرة أبي عبيدة ، وفيها ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، ووجهتها إلى ديار جهينة .

لقد كانتْ الغنائمُ التي جاءتْ إلى المسلمينَ أيامَ الفتوحاتِ الأولى في عهدِ أبي بكرٍ ، وعمرَ ، وعثمانَ - رضي اللَّهُ عنهم جميعاً - تُنفَقُ لإعدادِ جيوشِ الفتحِ ، وتجهيزِ الدَّعمِ ، وتحسينِ أوضاعِ المسلمينَ ، حتى لم يعدْ هناك فقيرٌ ، أو محتاجٌ . وقد نالَ أهلُ الكتابِ من تلك الأموالِ كما نالَ المسلمون ، أو بالأحرى عمَّتْ السُّكَّانَ جميعاً دونَ استثناءٍ ، سواءٌ أكان الإنسان مسلماً أم ذمِّيّاً .

وقدْ كانتْ الغنائمُ التي جاءَتْ المسلمينَ في العهدِ الأمويِّ تُنفَقُ لإعدادِ المجاهدينَ أيامَ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ - رضي اللَّهُ عنهما - ، ولأعمارِ الأرضِ (١) ، وبناء

(١) كان الأمويون يبنون في المنطقة التي يريدون إحياءها على هامش الصحراء ، وينتقل أعداد من السكّان إلى المنطقة ، وتُحيى المنطقة . لقد بدأ ذلك يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بإحياء منطقة حوارين (القريتين) ثم تابع ذلك عبد الملك بن مروان فأحيى منطقة عمرة (منطقة الأردن) . وبنى الوليد بن عبد الملك جامع بني أمية في دمشق ، وحلب ، ومسجد قبة الصخرة في القدس ، وبنى مسجد الوليد للمجذومين شمال شرقي دمشق، وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً ، ولا يزال يحمل الاسم نفسه . وأحيى سليمان بن عبد الملك منطقة الرملة في (فلسطين) من بلاد الشام . وأحيى عمر بن عبد العزيز منطقة دير سمعان (دير سلمان) في المرج =

المؤسساتِ ، وإصلاحِ الأراضي ، وإصلاحِ أوضاعِ المسلمينَ أيامَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، والوليدِ ، وسليمانَ ، وعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وهشامِ بنِ عبدِ الملكِ .

وبعدَ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ توقَّفتْ الفتوحاتُ ، وشُغلَ النَّاسُ بالخلافاتِ ، وانصرفَ المسؤولون إلى قمعِ الفتنِ ، والصِّراعِ بعضِهم مع بعضٍ . وقامتْ الدَّولةُ العبَّاسيَّةُ ، واتجهَ الحكّامُ الجددُ إلى تثبيتِ أقدامِهم، وترسيخِ نفوذِهم، وأُنفقتْ الأموالُ في الصِّراعاتِ ، والخلافاتِ ، وتوطيدِ الأمنِ . وأحسَّ السُّكّانُ بانقطاعِ الغنائمِ ، وتوقُّفِ جريانِ السَّبي .

وعادَ الفتحُ بعدَ أنْ توطَّدتْ أقدامُ الدَّولةِ العبّاسيَّةِ ، وإنْ كانتْ الفتوحاتُ على نطاقٍ أضيقَ ممّا كانتْ عليهِ سابقاً ، ولكنْ صُرفتْ الأموالُ الكثيرةُ في سبيلِ ذلكَ ، وبُذلتْ جهودٌ ضخمةٌ ، ولكنْ لم يلبثْ أنْ توقَّفَ الفتحُ ، وركنَ النَّاسُ إلى الدُّنيا ، وأخلدُوا إلى الأرضِ ، وكانُوا قد أثرَوا ، وملكُوا أسبابَ استمراريةِ الإنتاجِ ، والعملِ بما لديهم من رقيقٍ ،

= إلى الشرق من غوطة دمشق . وأحيى هشام بن عبد الملك منطقة الرصافة جنوب شرقي مدينة حلب جنوب نهر الفرات .

وبما وَرِثُوا من أملاكٍ أحياها أسلافُهم ، ورصيدٍ تركَهُ لهم آباؤُهم . وكما ملكَ الرِّجالُ أسبابَ الرَّاحةِ ، كذلك ملكَتْهُ النِّساءُ بما ورِثْنَ من خدمٍ وجوارٍ ، وتوقَّفَ عملُ المسلمين إذ اعتمدُوا على إنتاجِ الرَّقيقِ ، وتوقَّفَ عملُ النِّساءِ في البيتِ الذي قامَ على شغلِ السَّبايا والخادمات .

وسادَ الكسلُ ، وعمَّ الخمولُ ، نساءً ورجالاً ، وانصرفُوا جميعاً إلى حياةِ التَّرفِ واللَّهوِ ، فتوقَّفتْ الحضارةُ ، وأصبحتْ حياةُ النَّعيمِ غايةً ، ولمْ يرَ النَّاسُ بديلاً عنها ، وانخرطُوا فيها ، ولم تعدْ هناكَ إمكانيةُ مقاومتِها ، ولا الحياةُ دونَها ، فارتبطُوا بالأرضِ أشدَّ الارتباطِ من أجلِها ، وتركُوا كلَّ شيءٍ في سبيلِ مايهدفُون إليه ، ولم يعدْ لهم إمكانيةُ الدِّفاعِ عن بلادهم ، بل عن ديارِهم ، ولا على أنفسِهم ، وأصبحتْ لديهِم إمكانيةُ الاستسلامِ لكلِّ غازٍ لهم ، أو طارقٍ عليهِم البابَ . وهكذا انهارتْ الدَّولةُ العبَّاسيَّةُ تحتَ ضربةٍ من ضرَباتِ المغول ، رغم أنها دولةٌ مترامِيةُ الأطراف ، متَّسعةُ الأرجاء ، كثيرةُ السكَّانِ ، عامرةُ الأقاليمِ ، وفيرةُ الخيرات ، ولكنَّ نفوسَ أبنائها لا تقوى على المقاومة ، إذ نخرَ فيها الضعفُ ، وتغلغلَ فيها العفَنُ ، وأبلاها التَّرفُ ، وهدَّدها البطرُ .

سقطتْ الدَّولةُ العبّاسيَّةُ ، ونحنُ لانزالُ حتى الآن نعدٌّ خطأً أنَّ الحضارةَ الإسلاميَّةَ قد وصلتْ إلى أوجِها في تلك الأيامِ . فهلْ تنهارُ الحضارةُ هكذا ، وهي في أزهى العصورِ ؟! وسقطتْ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ في الأندلسِ ، ولانزالُ نفخرُ بما خلَّفتْهُ تلكَ الدَّولةُ من حضارةٍ ، فهلْ الحضارةُ ماديَّةٌ متمثِّلةٌ في أبنيةٍ وأعوادٍ ، أم معنويةٌ راسخةٌ في قلوبِ أبنائِهاترفضُ الاستسلامَ ، وتأبى الخنوعَ ؟! وهلْ الحضارةُ سعادةٌ تَسعدُ بها الأجيالُ بما تشملُهُ من معاني الخيرِ والسُّموِّ ، أم مظاهرُ تُذلُّ الأممَ ، وتُشقي الشعوبَ بما تحويهِ من غطرسةٍ وقوَّةِ جبروتٍ ؟! .

هذه أسئلةٌ نريدُ أن نتوصَّلَ إلى الإجابةِ عليها ، لندركَ بصدقٍ هل نسيرُ في طريقِ الرِّفعةِ والعلوِّ ، أم نهوي في دربِ الانهيارِ والشَّقاءِ ؟ .

وربَّما نستطيعُ أنْ نصلَ إلى الإجابةِ بمعرفةِ أحوالِ السُّكّانِ في أواخرِ أيامِ الدَّولةِ العبّاسيَّةِ ، ونهايةِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ في الأندلسِ .

أواخر الدولة العباسية

كانت حالة السكان المادية حسنةً في أواخر أيام الدولة العباسية ، إذ ورثوا الثراء ، والضّياع ، والعبيد ، والجواري ، فانصرفوا إلى حياة الترف ، ونعموا بما لديهم ، وسعدوا بما يأتيهم . العبيد والأجراء يعملون وينتجون ، وتدرُّ الأرض من خيراتها ، والجواري يعملن في البيوت ، ويُؤمِّن الراحة لسيداتهنَّ ، والسعادة لسادتهنَّ ، ويروين شهواتهم . ولننظر إلى كل جانب من جوانب الحياة .

العمل :

كانت الدولة تعتمد على العمل في الدوائر ، وفي الضِّياع والمزارع ، وفي البيوت والمصانع ، على الأجراء ، والعبيدْ ، والقادمين للعمل من خارج أقاليم الدولة ، أما أهل البلاد فيعيشون على الأرائك الوثيرة في مزارعهم ، تحت الظلال ، وعلى ضفاف الجداول ذات المياه المتدفقة ،

وبين الجواري الحسان ، أو في قصورهم الفخمة ، ذات الجنان الوارفة ، والحجرات الواسعة بين الإماء الملاح . وتعيش النساء بين وصيفاتهن ، كل شيء يقدَّم لهن ، ووكل شيء يجهَّز لهن ، لايعرفن سوى أدوات التجميل ، واختيار الثياب ، وأحاديث المجتمعات .

وتظنُّ الدولة أن آلة العمل تدور ، ويشعر الناس أن الأمر طبيعي ، فكل شيء يتحرَّك حسب المخطَّط المرسوم، ويحسُّ السكان أن الإنتاج يتزايد ، فكل شيء متوفر ، ولايحتاج الأمر إلى مزيد ، والواقع غير ذلك . فإن كلَّ إنتاجٍ إنما يقوم على الأرقاء الذين لا يملكون شيئاً ، وإن العمل يسير تلقائياً ، ويعتمد على الأيدي المستقدمة التي ليس لها من الأمر شيءً . وفي الوقت الذي يمتنع فيه الأرقاء عن العمل لسببٍ من الأسباب ، أو يرفض الشغل المستقدمون لعلَّةٍ من العلل ، فإن آلية العمل تتوقَّف ، ويتعطَّل الإنتاج ، وتُفقد المواد من الأسواق ، وتحدث المجاعة ، وتسقط الأمة ، إما بالارتحال ، أو بالاحتلال .

والأصل أن يعمل الإنسان بيده مهما كانت مكانته ، أو يشرف على أعماله مهما بلغت منزلته ، ويتابع أشغاله مهما بلغت ثروتـه ، فالمسلم عليه أن يعمل ، ولا يعيش عالةً

على غيره ، خوفاً من أن يصل الناس إلى هذه المرحلة التي تكلمنا عنها . وعلى المسلم أن يعمل وينتج ، لأنه ملك للدولة ، وليس ملك نفسه ، والأمة مجموعة من الناس ، فإن لم يعمل هذا لمكانته ، ولم يعمل هذا لثروته ، ولم يعمل هذا لأن أسرته ذات رفعة ومكانة ، ولم يعمل هذا لكسله ، وذاك لعجزه ، . . . ماتت الأمة ، وسقطت ، وانهارت أمام العدو . وإذا عمل أناس لحاجتهم ، وتواكل آخرون ، انخفض الإنتاج إلى النصف ، واحتاج الشعب إلى المواد الأساسية ، ووقع ضحية الكسل ، أو ضحية الذين لا يعملون لمكانتهم أو لثروتهم ، ثم تزول مكانتهم عندما تسقط الأمة وتضيع ثروتهم ، ويكونون سبب سقوط الأمة جميعها ، وسبب ضياع ثروتها ، وهم الذين يفقدون أكثر من غيرهم ، ويضيعون أكثر من سواهم ، لأنه عندما تسقط الأمة ، فإنه تضيع مكانة أصحاب الرفعة ، أما الذين ليس لهم منزلة فلم يفقدوا شيئاً ، لأنه لا منزلة لهم ، وتضيع ثروة أصحاب الثروات ، أما الذين لا ثروة لهم فإنهم لا يفقدون شيئاً . وبذا تكون معاناة أصحاب المكانة والثروة أكثر من غيرهم ، لأن الوضع قد اختلف عندهم تماماً . أما الذين لا يملكون فلم يختلف عليهم الوضع

بتلك الدرجة . وبكلامٍ أوضح كانوا هم سبب السقوط ، فنالوا جزاءهم وعقوبتهم في الدنيا ، ولهم عقوبتهم في الآخرة وبصورةٍ أشدّ وأعنف ، جزاءً بما كانوا يكسبون .

إذن إن الذين لا يعملون غنىً ، أو ترفُّعاً ، أو مكانةً ، أو ادِّعاءً بعدم الحاجة للعمل ، هم سبب الانهيار والسقوط، وكلما زاد عددهم في المجتمع اقترب موعد زوال الأمة . فلنحذر ، أيها المسلمون ، ممّا نجده في مجتمعاتنا ، ولنترك بعض ما تعوَّد عليه أفرادٌ منا .

البُنْيان :

الأصل في البناء أن يكون مأوى يستر المرء فيه نفسه وأهله ، ويحميهم ، ويجد فيه راحته وسكنه . ولا مانع من أن يكون واسعاً يحوي غرف الطبخ ، والنوم ، والضيافة ، والجلوس ، والحمامات ، ويشمل حديقةً ، وكل ما يجد الإنسان فيه هدوءه وسعادته ، على ألاّ يزيد على ذلك بالتبذير من زخرفةٍ وتزيينٍ لا فائدة منهما .

غير أن المترفين في أواخر العصر العباسي كان الواحد منهم يبني القصر الفخم ، وينفق عليه المال الوفير ، فإذا ما أقام فيه ، ولو مدةً قصيرةً ، ثم رأى قصراً آخر أجمل منه ، أو أنه قد أنقص في قصره شيئاً لا يمكن زيادته ،

أو رأى مكاناً أجمل من المكان الذي بنى فيه، ترك قصره، وما أنفق فيه خاوياً ، وانطلق يبني من جديد ، وينفق من جديد ، لا يبالي ، فالخير كثير ، والمال وفير ، وأن ملكه لا ينازعه فيه أحد ، ولا يشاركه فيه امرؤ ، ونسي أنه مستخلف على ذلك ، فالمال مال اللّه ، والملك للّه ، وأن الأمة جميعها تشاركه ، فهو لا يزيد على أنه عضوٌ فيها ، يسعد إذا سعدت ، ويشقى إذا هوت ، وهو يعمل على انهيارها ، فيسعى في شقاء نفسه ، وهو لا يدري .

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فللمترف قصرٌ في كلٍّ ضيعةٍ يملكها ، وقصرٌ في كلِّ مدينةٍ يرتادها ، وقصرٌ في كلٍّ مصيفٍ يصطاف فيه ، وهذه القصور خاوية معظم أيام السنة ، إلاّ من الحرس والخدم ، ومن أيامٍ ينزل بها فيها ، إن نزل ، أو صادف مروره عليها .

هذه القصور قد احتلَّت مساحاتٍ شاسعةً من الأرض، والأمة بأشدِّ الحاجة إلى هذه المساحات ، لاستغلالها ، واستثمارها ، أو لبناء بيوتٍ لآخرين لا يملكون منازل إن كانت الأرض مخصصةً للبناء ، فهو قد أخذ حقَّ غيره ، وحال دون تقديم الإنتاج للأمة ، فقد أضرَّ بذلك مجتمعه ، واعتدى على الرعية اعتداءً صارخاً ، لأنه حوّل هذه

المساحات التي تشغلها قصوره من أرضٍ صالحةٍ للزراعة، والإنتاج ، أو مهيئَةٍ للسكن والعمران إلى أمكنةٍ محجوزةٍ لا تفيد الأمة ، ولا يستفيد منها هو .

وهذه القصور قد أنفق عليها أموالاً طائلةً ، ولا يجني منها شيئاً ، ولا تدرُّ عليه ربحاً ، وبذا فقد جمَّد هذه الأموال الضخمة ، وحرم الأمة من استثماراتها ، وما يمكن أن تقوم به من مشروعات تعود بالخير الكثير على أفراد الرعية جميعاً .

وهذه القصور قد عُطِّلت عليها أيدٍ عاملةٍ لحراستها ، إذ أنها خالية ، ولصيانتها ، إذ أنها غير مسكونة ، خوفاً من فساد مافيها من أثاثٍ وفرشٍ ، فالغبار يؤثِّر عليه ، والمزروعات تحتاج إلى رعايةٍ وسقايةٍ ، خوفاً من التلف . وهذه الأيدي التي تسكنها بقيت عاطلةً دون عملٍ منتج ، أو شغلٍ مثمرٍ ، فهي تعيش أولاً عالةً على غيرها ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ حُرمت الأمة من إنتاجها .

وصاحب القصور أخطأ في حقِّ الأمة خطأً كبيراً ، إذ حجز مساحاتٍ شاسعةً من الأرض ، وحال دون إنتاجها ، وجمَّد أموالاً طائلةً ، وأبقاها معطَّلةً ، وعطَّل أيدي عاملةً عن الإنتاج ، وأبقاها عالةً على المجتمع ، هـذا إضافةً إلى

الحقد الذي أوجده في نفوس الفئات الفقيرة التي لا تجد لها مسكناً تأوي إليه ، وإلى جانبها قصورٌ مشيَّدةٌ فارغةٌ غير مأهولةٍ ، أو تسكن بيوتاً باليةً تريد أن تنهار لقدمها ، وعدم صلاحيتها ، وفساد مادة بنائها .

وفي الوقت الذي نجد فيه قصوراً عامرةً شامخةً ، ونظنُّ أننا نعيش في حضارةٍ ماديةٍ عتيدةٍ ، إلاّ أننا في الواقع بجانب نفوسٍ متداعيةٍ قابلةٍ للاستسلام ، عَطالةً ، وترفاً ، وحقداً ، يعشعش فيها الضعف ، ويملأها التعب ، وغير قادرة عن الدفاع ، بل عن أي شيءٍ تدافع ، عن مالٍ لا تملكه ، أو أرضٍ لا تنتمي إليها ، أو عقيدةٍ لم تُملأ قلوبها بها ، ولم تتعوَّد على ذلك ، أو رجالٍ تحقد عليهم . وبذا فالأمة معرَّضةٌ للسقوط ، وصاحب القصور عامل من عوامل هذا السقوط .

الأملاك والضّياع :

يملك الإنسان الأرض ليستثمرها ، وينتفع بها ، ويستخرج منها غذاءً لنفسه ، ومجتمعه ، ولا يحقُّ له أن يهملها ، لأن في إهمالها حرمان الأمة من إنتاجها وخيراتها ، ولا يحقُّ لمسلمٍ أن يكون سبباً في هذا الحرمان ، إذ لو فعله عددٌ لضعفت الأمة ، وتداعى كيانها،

وغالباً لو أقدم على فعله فردٌ واحدٌ لقلَّده آخرون ، لذا كان على الدولة أن تمنع ذلك ، وتحول دونه . ولكن بالابتعاد عن النظام الإسلامي ، وترك الحبل على الغارب باسم الحرية ، قد أورث الفوضى ، وأحياناً يُفعل هذا بقوَّة السيف ، أو جاه السلطان ، فتعمّ الفوضى وينتشر الفساد حتى تنهار الأمة .

عندما دخل المسلمون البلاد فاتحين وجدوا فيها كثيراً من الأراضي الموات ، لاتنتج شيئاً ، ولايستثمرها أحد ، ولاتعود في ملكيتها إلى فرد ، بل كثيراً ما كانت عقبةً في وجه الحركة والانتقال ، أو بؤرةً للبعوض والأمراض إذا كانت مستنقعات ، ولا بدَّ من إصلاحها للتخلُّص من إيذائها ، وتحويلها إلى أرضٍ منتجةٍ مُستَغلَّة، تعطي خيراً، وتقدِّم زرعاً ، وأقبل المسلمون يُحيونها ويستَغلُّونها حسب قانون إحياء الموات المعروف : كل من أحيى أرضاً ليست ملكاً لأحدٍ ، واستثمرها ثلاث سنواتٍ فهي له ، على أن يستثمرها بنفسه ، ويبقى في استثمارها . فإن أهملها ، وعادت بوراً ، نُزعت ملكيتها منه . وبعد غياب النظام الإسلامي أهمل الكثير أراضيهم التي سبق لأسلافهم أن أحيوها ، وأوكلوا مهمة استغلالها إلى عبيدهم أو مواليهم،

فلم تستغلّ بشكلٍ صحيح ، لأن الذين يعملون بها ، إنما يعملون فيها لغيرهم ، لا لأنفسهم ، ممّا قلّل الإنتاج ، وخسرت الأمة الكثير منه ، ولم تكن الخسارة لصاحب الأرض ، وإنما كانت الخسارة للأمة .

ويشتري بعض الأثرياء أراضي واسعةً ، حتى كانت هناك منافسةٌ في الشراء ، ومنافسةٌ على تملُّك الأرض الأوسع ، ومباهاةٌ في المزارع الأفضل ، ولم تكن تلك الأراضي ، وهذه المزارع لتستثمر من قبل أصحابها ، أو ليشرف ملاكها على استغلالها ، وإنما كان يقوم بهذه المهمة الموالي والمستقدمون ، ولذا كان الإنتاج قليلاً ، لأن الاهتمام ضئيل ، إذ أن أصحابها بعيدون عنها ، ويكفيهم مهما قلّ إنتاجها ، لاتساعها ، وكثرة أعدادها ، وقلّة حاجة أصحابها إلى مواردها . وكان ذووها يكتفون ببناء قصرٍ فيها لإقامتهم إن مرّوا عليها متنزّهين ، أو رغبوا في إقامة حفلةٍ فيها ، وربما أثناء هذا المرور أبدوا بعض الملاحظات، لا تتعلّق بأساليب الزراعة ، وطرق الاستغلال ، وزيادة الإنتاج ، وإنما بزراعة بعض الورود ، وأصناف جديدة يرغب في إضافتها ، أو الاعتناء بمنطقة الجلوس ، وتهيئة بعض وسائل الراحة .

ويحصل بعض الناس على مناطق يقطعها لهم الوالي ، أو القائد ، نتيجة جهود يبذلها أحدهم لمصلحة الأمة ، أو خدماتٍ يقدِّمها لصالح المسلمين ، فيستصلحها الذي حصل عليها ، ويبدأ بزراعتها ، والإفادة منها ، وتنتقل بالإرث إلى أولاده وأحفاده . . . ، ومع غياب النظام الإسلامي يبدأ الإهمال .

ويبني صاحب الأرض لعمّاله بيوتاً ، ولأجرائه منازل ، فإذا كانت الأرض واسعةً كانت البيوت والمنازل كثيرةً ، وشكَّلت ضيعةً ، وقد تكثر الضِّياع لشخصٍ واحدٍ ، ومع كثرتها واتساعها يزداد الإهمال ، ويقلُّ معه الإنتاج ، وإن كان يزيد كثيراً على حاجة صاحب الأرض ، ولكنه يتناقص بالنسبة إلى الأمة التي تتراجع نتيجة ذلك عن مكانتها ، وتتأخّر في كفايتها ، وتصبح معرَّضةً للسقوط عند أول صدمةٍ تصيبها ، فتتهاوى أمام عدوِّها .

ويحرص الإسلام على ألاّ يكون هناك تفاوتٌ كبيرٌ في المجتمع ، حيث لا يعترف على نظام الطبقات المعروف في كثيرٍ من بقاع العالم . وحتى لا يكون ذلك فإن نظامه يفتِّت الثروة بالإرث ، وإخراج الزكاة ، ودفع الصدقات الدائم . ومن أجل ألاّ يصبح تفاوت فإنه يطالب أتباعه أن

يعملوا بأنفسهم ، وأن يُشرفوا على أملاكهم واستثمارها بذاتهم ، كي يكونوا منتجين . كما يُحرِّم عليهم الاحتكار والربا ، وهما أكبر مصدرين لجمع الثروة وتكديس الأموال .

الخدم والعبيد :

كانت مصادر الرقيق قبل الإسلام كثيرةً ، منها الغارات التي كانت تشنُّ بين القبائل بعضها على بعض ، ومنها الاختطاف ، غير أن الحروب كانت أكبرها مورداً . ومع ظهور دولة الإسلام زالت أكثر هذه المصادر ، وبقيت الحروب ، وذلك للمعاملة بالمثل ، إذ أنه لا يمكن للمسلمين إن هم وقعوا في الأسر ذهبوا رقيقاً ، وإن حصلوا على أسرى أطلقوهم ، وأحسنوا إليهم ، فلو فعلوا ذلك لانهارت معنويات المجاهدين ، خوفاً من استرقاقهم ، وخشية وقوع ذراريهم (النساء والأطفال) بالسبي ، وفي الوقت نفسه ترتفع معنويات أعدائهم ، إذ لا يخافون على ذراريهم فالمسلمون رحماء ، لا يخشون على أنفسهم من الرقِّ ، لأن المسلمين لا يسترقُّون أسراهم ، وهذا لا يتفق مع فكرة الجهاد ، ولهذا لجأ المسلمون إلى المعاملة بالمثل لخصومهم ، فكانوا يأخذون أسراهم أرقاء ، ويسبون

الذراري ، فيكونون إماءً وعبيداً . ولكنه في الوقت نفسه قد فتح لهم الإسلام أبواباً كثيرةً للتخلُّص من العبودية ، والإحسان إلى من كان موصوفاً بتلك الحالة ، فكانت هناك كفّارات عن الذنوب لا تكون إلاّ بعتق الرقاب ، حالة وجودها وتيسُّرها ، كما كان العتق نوعاً من أنواع الصدقات ، والأمة التي تنجب تصبح أمَّ ولد ، لا يصحُّ بيعها ، إذ ينجيها ولدها من ذلك ، هذا إضافةً إلى الأمر بالإحسان إلى الموالي والعبيد والإماء في المعاملة ، ورفع المستوى المادي والمعنوي ، وما إلى ذلك ممّا ورد في كتب الفقه .

ومع الزمن ، وإن قلَّ الرقُّ في ديار الإسلام إلاّ أن بعضه قد بقي ، وإذا كانت قد توقّفت الفتوحات فخفَّت مصادره ، إلاّ أنه بعد غياب النظام الإسلامي عن الحكم قد وُجدت أسواق له ، حيث تعدَّدت مصادره ثانيةً ، وقام النخّاسون خارج ديار الإسلام بجلبه بطرقهم المختلفة إلى داخل بلاد المسلمين ، وخاصةً من بلاد الصقالبة .

كان الأرقاء يعملون خدماً في البيوت ، كما يعملون في الأرض ، والمتاجر ، والمصانع ، والرعي . وكان نتاج أعمالهم لسادتهم ، مقابل إطعامهم ، وكسوتهم ، وإيوائهم.

وربما كان السادة يجودون عليهم ببعض الدراهم إن وجدوا منهم همَّةً ونشاطاً ، أو أدّوا لهم بعض الخدمات الخاصة . ولكن هذه الدراهم القليلة لا تكاد تساوي شيئاً، وأنها مع الزمن قد تصبح ذات وزنٍ نسبيٍّ . ولما كان العمل لصاحب الملك ، ولا ينال المولى أو الخادم منه شيئاً لذلك كان التواكل ، وعدم الاهتمام ، والذي يؤدّي بالتالي إلى قلَّة الإنتاج ، غير أن صاحب العمل لا ينتبه إلى هذا كثيراً ، إذ ما يأتيه مهما قلَّ يكفيه ، ويزيد عن حاجته ، بل ويُشكّل عنده ثروة لكثرته ، ولكثرة عدد الموالي والخدم. غير أن هذه القلّة تنعكس على الأمة ، إذ هناك الأعداد التي لا تملك ، ويأتيها الغذاء والتموين من إنتاج أملاك هؤلاء الأثرياء ، وهذا الإنتاج لا يكفيهم ، فتشعر الأمة بالحاجة ونقص الغذاء . وأكثر ما ينعكس ذلك على الفقراء والعامة الذين لا تظهر عليهم الآثار إلاّ بعد مدةٍ ، لإمكاناتهم على التقنين ، والصبر ، ومداراة الأمور ، ولو نال ذلك الأغنياء لظهرت النتائج مباشرةً .

وكان الجواري في البيوت يقمن بكلِّ أعمال المنزل ، وزيادة ، حتى إنهنَّ كثيراً ما يقمن بأعمال سيداتهن الخاصة، كما كنَّ ـ أحياناً ـ يجلبن الحاجيات من الأسواق.

وتقوم الوصيفات بأعمال السيدات الخاصة ، وتتعاون الجواري والوصيفات في شؤون التربية ، وهكذا لم يعد لسيدات القصور أيُّ عملٍ يقمن به ، وإنما وقتهنَّ كلُّه فراغ ، ويجب أن يجدن ما يشغلن أنفسهنَّ به ، من لهوٍ أو غيره ، كما سنرى - إن شاء الله - .

ولمّا كانت تربية الأولاد على عاتق الوصيفات والجواري ، لذا فقد ساءت التربية ، وفسدت الطباع ، ونشأت الأجيال على قبول التلقّي ، وأخذ الأوامر ، والتقيّد بالتعليمات ، والخضوع ، وإمكانية الخنوع ، وضعفت من النفوس فكرة القيادة ، وإعطاء الأوامر ، ومحاولة الابتكار، والعمل على الإبداع ، وهذا ما ظهر على أبناء الذين يتحمّلون المسؤولية ، والذين من المفروض أن يقودوا الأمة، ويعملوا على النهوض بها . ولمّا كان هذا الوضع فإنه قد بدأ التراجع ، وأخذت تظهر على الأمة عوامل الضعف والتأخُّر ، وإمكانية الانهيار والسقوط عند أول صدام مع من يبرز من الأعداء .

المال :

إن الأثرياء الذين تكلّمنا عنهم يفيض عندهم الكثير من المال رغم إنتاج أرضهم القليل ، والمردود الضئيل الذي

تعطيه ، ورغم خمول العبيد ، وكسل الموالي ، وذلك لاتساع الأرض ، وتعدُّد المناطق ، وكثرة الأجراء ، وأعداد العاملين في الأرض .

ورغم زيادة التبذير ، وضخامة النفقات ، إلاّ أنه تبقى هناك أموالٌ وفيرةٌ لدى أصحاب الأراضي ، وملاّك العبيد، فأين توضع تلك الأموال ، ولم تكن هناك مصارف داخل البلاد أو خارجها ليضع الأثرياء أموالهم فيها ؟ لقد كان قسمٌ منها يُكدَّس في الخزائن والقصور ، وهذا ما كان يُطمع الناس من خارج القصور في أصحابها ، ويُغريهم بهم ، فيُخطِّطون للتخلُّص منهم ، أو للانقضاض على القصور لنهبها ، وهذا بالتالي يُولِّد حقداً ، ويُثير الضغائن في النفوس ، كما يُطمع الذين يعيشون داخل تلك القصور، من أجراء ، وموالي ، وجواري ، وخدم ، فيتمنَّون لو يستطيعون سرقتها أو بعضها ، وهذا ما يولِّد البغضاء والكراهية للسيِّد ، وهو لا يدري ولا يعلم ما يهيَّأ له .

وكان قسمٌ من تلك الأموال يُجمَّد على شكل جواهرَ وحُليٍّ تتزيَّن في بعضها سيِّدات القصر ، وفي بعضها الآخر يوضع في خزائنهنَّ ، وتزيد هذه الحُلي والجواهر

باستمرار ، ففي كلِّ مناسبةٍ يقدِّم السيِّد لزوجه بعضها إرضاءً لها ، وكلَّما اشترى جاريةً أتحف زوجه بهديةٍ ليُسكتها ، وتبدي الزوجة شيئاً من دلِّها لبعلها لتشدَّه إليها، أو لتلفته عن غيرها ، فيقدِّم لها هذه الحلي والجواهر ، وهكذا .

وهكذا فالمال المكدَّس وفير ، وتحرم الأمَّة من حركته ، وتداوله ، واستثماراته ، بل لا يستفاد منه أبداً ، في الوقت الذي تكون فيه الرعية في أشدِّ الحاجة إلى المال ، وإلى الإفادة منه للتداول، والأسواق . كما أن المال المجمَّد كثير، وهو معطَّل ، والأمَّة بأشدِّ الحاجة إلى السيولة لإقامة مشروعاتٍ إنمائيةٍ ، من سدودٍ ، وترعٍ ، وقنواتٍ ، ومن مصانع ودراساتٍ .

وفي الوقت الذي عطَّل فيه أصحاب الأموال ، وحاولوا دون قيام مشروعاتٍ ، فإن حقداً قد ملأ كثيراً من النفوس على تكديس تلك الأموال ، وعدم الاستفادة منها ، فإن النفوس البشرية لا تستطيع رؤية أموالٍ مكدَّسةٍ هي بحاجةٍ إليها ، ولا تملك شيئاً ، فيقع الطمع ، وتحدث الأحقاد .

الجنس :

غريزة أودعها الله في النفس ، حفظاً على النوع ، وإبتلاءً لخلقه ، وجعل طريقاً طبيعياً لممارستها بالزواج ، وأوجد حبَّ الولد والعاطفة له وسيلةً لمباشرتها ، وعدم الزهد بها ، وكان الإيمان كابحاً لجماحها ، وحاداًّ لها في حدودها الشرعية . وإن عدم الإيمان يجعل النفس البشرية تتفلَّت من كلِّ قيدٍ من قيودِ القيم ، والأخلاق ، والدين ، والحياء ، وتُمارس الشهوة البهيمية بشكلٍ حيوانيٍّ .

فلمّا غاب النظام الإسلامي ، وخفَّ تأثير القيم ، وتفلَّت الناس من قيودهم ، انطلقت النفس البشرية من عِقالها ، وساعدها على ذلك الفراغ ، ووجود الوسائل المشجِّعة ، من المال ، وانتشار هذه العادات ، وتوفُّر الجواري والإماء، وعدم وجود الشاغل للرجل والمرأة على حدٍّ سواء ، بل ووجود الرغبة والطلب ، وهذا ما فطر الله الناس عليهما .

إن توفُّر المال كان يمكِّن الرجل من شراء الجواري ، بل وُجدت منافسة في الاقتناء ، وإذا ما اشتهرت جاريةٌ بجمالها ، سُعي إليها من كلِّ مكان ، وطُلبت من كلِّ جهة، وأُرسل في طلبها ، وشرائها ، والقدوم بها مهما غلا السعر ، أو زيد في الثمن .

كان الرجل أثناء وجوده في القصر ، أو عند نزهته في المزرعة ، أو نزوله إلى الضيعة ، بل وفي كلٍّ مكان يحلُّ به تحيط به الجواري يسعين في خدمته ، ويعملن على إرضائه ، يسقطن فوق بساطه جيداً فجيد ، متبرجاتٍ ، وليس له من شغلٍ غيرهنَّ ، وليس لهنَّ من مأربٍ إلاَّ عنده. وكانت نساؤه يحاولنَّ شدَّه إليهنَّ ، ولفته عن سواهنَّ ، وكلٌّ منهنَّ تحاول جذبه إليها لا إلى غيرها ، فتجلس على عرشها تحيط بها وصيفاتها ، وتأمر وتنهى ، وهي في كامل زينتها ، وقد يصل أمر الواحدة إلى زوجها ، ولكن لا يلبث أن يأتيه نهيٌ من أخرى . وينصرف الرجل من دنياه إلى الواقع الذي يعيش فيه ، لا يحسُّ إلاَّ به ، لا يملُّه ، ويشعر بالنشوة ، وتطفح منه السعادة عندما يصدح صوتٌ رخيمٌ ببيتٍ من الشعر ينتقل إلى أغصان الأشجار، فتترنَّم معه حتى يضيع صداه بعيداً مع هدوء المزرعة ، ويميل عليه غصن بانٍ ، يطلب رضاه ، ويتجاوب مع الصوت الندي ، بحنانٍ ، ورفقٍ ، وتصعد معه تنهُّدات الحاضرات ، فيكبو من سحر الجمال ، ويصحو على نغم الوتر .

وتنظـر نساؤه فلا تـرى فـيـه ما يكفيها ، إذ أفـرغ في

جلساته كثيراً من سعادته ورغباته ، وترى أربها في الكثير من الفحول الذين يريدون الصيد ، غير أنهم لا يجرؤون على رمي شباكهم بسبب وضعهم المتدنِّي ، ووضع الفريسة العالي ، كما أن في سيِّدات القصر بقية من آثار العقيدة ، والخوف من الله ، وجزءاً ليس بالقليل من الحياء، وإن لم يوجد هذا أو ذاك ، وهو قليل ، فإنهنَّ يخشين الحديث ، والقيل والقال ، فيمتنعن ، رغم أن النار في الأحشاء تكاد تلهب كلَّ ما حولها .

والرجال والنساء في القصر على الصورة نفسها ، وإن كان بشكلٍ أقل ، الرغبة قائمة ، ولكن الموانع تحول دون ذلك ، وهي أنواع ، أهمها الدين ، ثم هناك الحياء ، والخوف ، والرقابة . . . ، وبعض من في القصر لهم أزواج ، وبعضهم الآخر ليس لهم ذلك ، ولكن لا توجد مشكلات . . . ، ولا مخالفات بيِّنة .

ومع ذلك فإنه توجد بعض المخالفات التي تسبب الكثير من الإزعاج ، ولعلي أشير إلى بعضها ، مثل الخلوة التي تحدث من غير قصد ، والرجل المكلَّف بنقل سيِّدةٍ من مكان إلى آخر ، فالمرأة وهي في الهودج يقودها أحد الخدم الذين يعملون في القصر ، فقد تبدو منه التفاتة ،

وهي تريد أن تصلح وضعها ، فيرى منها بعض مفاتنها ، فتلتهب النار في الهشيم ، ولا يستطيع إطفاءها ، ولا الحديث عن ذلك ، وربما طلبت منه طلباً كدلالةٍ على الطريق ، أو شربة ماء ، فيرن الصوت العذب في الآذان المرهفة السمع لمثل هذا الصوت ، فتتأجج النيران في الكبد ، فيكتمها ، والفتاة لا تدري ، وربما لا تفكر في هذا أبداً ، ولو فكرت لكان الأمر خطيراً ، إذ يتلظى الفؤادان من غير مياه تُطفىء الظمأ . ويحدث هذا نتيجة المخالفة الشرعية ، فهذه خلوة غير شرعية ، رغم أن الفتاة في الهودج ، والخادم يقود البعير ، والعراء متسع ، لأنه لا حائل بينهما ، ويحاول الشيطان أن يؤدِّي دوره . وربما أبدى بعضهم تساهلاً بحجة أن الفتاة نتيجة وضعها لا تفكِّر في مثل هذا الخادم ، غير أن حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلاّ كان الشيطان ثالثهما » لم يحدِّد المهنة ، ولا السن ، ولا المركز ، وهودج الأمس سيارة اليوم . . . .

اللهو :

إن الرجال الذين لا عمل لهم ، ولا حاجة لهم للعمل - حسب ظنهم - لكثرة مواردهم ، بل إن أعمالـهم الخاصة

بهم تؤدّى لهم على الشكل الذي يريدون ، فكيف يقضي هؤلاء أوقاتهم ؟ وخاصةً إذا علمنا أن أكثرهم ليسوا من هُواة القراءة ، ولا من أهل التصنيف والتأليف ، بل إن قراءة القرآن الكريم لتعدّ قليلةً عند أهل هذه الفئة التي نتكلّم عنها .

وإن النساء اللواتي لا عمل لهنّ في المنزل ، ولا في خارجه ، وليسوا هم بحاجةٍ إلى العمل ـ حسب ظنهنّ ـ لكثرة مواردهنّ ، وكثرة الوصيفات والخادمات اللواتي يقمن بأعمال المنزل كاملة ، وبالتربية كلّها ، حتى يقمن بأعمال سيّدات القصر الخاصة جميعها ، ولم يبق بعدها لتلك السيّدات من عمل يُشغلن به فراغهنّ ، فكيف يقضي هؤلاء النسوة أوقاتهنّ ؟ لا شكّ أن أعمال التزيين والتجميل تأخذ جزءاً من الوقت ، غير أن هذا يعدّ قليلاً بالنسبة إلى طول الأيام .

وسبق أن قلنا : إن الرجال والنساء على حدّ سواء يضعن وقتاً في سماع الغناء من الجواري ، والنظر إلى رقصات الوصيفات ، وخاصة إن جاءت جارية جديدة تجيد الغناء ، فإن السماع إليه يكثر ، ومع هذا فإنه يبقى وقت ليس بالقصير ، فأين يقضيه هؤلاء ؟ لقد كانت هناك

جلسات يستمعون فيها إلى الشعر ، على أنه المادة الخام للغناء ، والمادة الأساسية للإثارة ، إذ تقام حلقات واسعة لهذا الشعر ، وخاصة الغزل منه ، وتكون جلسات للنساء يستمعن إلى هذا النوع من الشعر ، وربما يعملن على حفظه ، ويتدرّبن على غنائه . ولمّا كان للشعر هذا الدور في الحياة الاجتماعية ، وهذا الأثر في النفوس ، فإن من يجيد نظمه يصرف وقتاً لقول القصائد ليبرز في المجتمع ، ويصبح شعره هو السائد بين الناس .

وإلى جانب الشعر كانت هناك لقاءات على الفكاهة ، وأخبار الحمقى ، والقصص التي وقع أصحابها في مأزق يصعب الخروج منه ، أو عقدة صعبة الحلّ ، وقد انصرف أناس لجمع مثل هذه الموضوعات ، وكانت عدّة كتبٍ تبحث في مثل هذه الأمور ، وذلك كلّه في سبيل الفكاهة ، وإضاعة الوقت . وكثرت سهرات السمر التي كانت تستغرق جزءاً طويلاً من الليل ، ويضطر السامرون بعدها لنوم جزءٍ طويلٍ من النهار .

التنافس والحقد :

كان التنافس قوياً على امتلاك الضّياع ، والحصول على الأراضي ، وشراء الجواري ، وقد يُظنّ أن هذا

التنافس فردي ، ولكنه ليس كذلك ، إذ ينتقل إلى الأتباع فالضيعة التي تتبع هذا الرجل يكره أهلها ويحقدون على أهل الضيعة الأخرى التي تتبع الرجل الثاني ، ويعملون على الإضرار بهم في مزروعاتهم ، وأملاكهم . وعبيد هذا قد يصطدمون بعبيد ذاك ويقتتلون . ولهذا ظهرت فكرة امتلاك العبيد وكثرتهم ، لتنفيذ الرأي ، والتحكُّم ، حتى غدا نفوذ الرجل يقوَّم بكثرة مماليكه ، وصار الخلاف يصل إلى السلطة .

وإذا كان التنافس بين الملاّك في مختلف المجالات ، ويُظهرون قوَّتهم بخدمهم وأجرائهم فإن هناك حقداً من أولئك العبيد على ساداتهم . ولنلاحظ منطقة البصرة التي كانت ساحةً لذلك الحقد ، لقد كانت كثير من المزارع فيها لأثرياء بغداد ، وأغنياء البصرة ، وكان العمّال في تلك المزارع أكثرهم من الزنج الذين استُقدموا من منطقة الصومال ، وجاء هؤلاء العمّال وهم في سنِّ الشباب ، يتفتَّقون حيويةً وشباباً ، ويمتلئون قوَّةً وإمكاناتٍ ، جاءوا للعمل من غير زوجات ، يريدون جمع شيءٍ من المالِ لتحسين أوضاعهم ، وأخذوا يعملون في تلك المزارع بجدٍّ ونشاطٍ ، في الظلِّ ، وتحت الشمس المحرقـــة ، وفي كلِّ

بقعةٍ يقتضي فيها العمل ، ويأتي أصحاب الأراضي للنزهة في مزارعهم ، يأتون مع نسائهم ، وجواريهم ، ومع النساء وصيفاتهنّ متزيّناتٍ متمايلاتٍ ، ويأخذ المتنزّهون مكانهم المعدّ لذلك ، المياه تجري في جداول ، وتتدفق في شلالاتٍ ، فضيةً في سقوطها ، وفي جريانها ، تلمع بين الحشائش الخضراء عندما تنكشف عنها تحت تأثير نسمات الهواء العليل ، يجلسون على الأرائك ، ويسرع الخدم يحضرون الفاكهة ، والعصائر ، والماء البارد العذب، وأكواب الشاي ، وكلّ ما تلذّ له الأعين ، وتطيب به النفوس .

ويعود الخدم والعمّال للشغل المضني الشاق ، وهم في كدِّهم ترتفع أصوات الأنغام ، وتصدح أصوات الجواري العذبة ، فتحملها أمواج النسمات ، فتنساب مخملية الوقع، فتتلقّاها آذان العمّال ، فترتخي مفاصلهم نشوةً ، ويعجزون عن العمل ، فيجلسون . . . ، ولا يلبثون أن يسمعوا أصوات الوكلاء تنهرهم ، وتُقرّعهم ، وتطلب منهم العمل بجدٍّ ، وترك الكسل والخمول الذي اعتادوا عليه ، وتُهددهم وتتوعدهم ، بالإنقاص من الأجر ، أو الفصل من العمل . ويريد الوكلاء بهذا أن يُظهروا حرصهم على العمل

أمام سادتهم ، والاهتمام بالمزارع ، ومتابعة الأجراء ، لزيادة الإنتاج ، وتحسين المردود . وفي الواقع أنهم يشاركون العمّال حقدهم على الملاّك .

ويرجع العمّال إلى مواصلة كدِّهم ، ولكن بتكاسل ، إذ انصرفوا بتفكيرهم إلى نواحٍ ثانيةٍ ، وسرحوا بخيالهم بعيداً ، وبعد قليلٍ تأتي الأوامر لهم بإحضار الماء الكافي ، وتهيئة الحمّامات، فيلبّون ، وليس لهم إلاّ ذلك ، ويتحرّكون، وألسنتهم تتمتم بكلماتٍ زنجيةٍ غريبةٍ . . . ، ويقضون يومهم يُشغلهم العمل ، ومتابعة المهمة ، فإذا ما انتهى العمل ، وأخلد الواحد منهم إلى الراحة ، شرد بفكره ، وسرح بخياله ، يتمنّى ، ويحلم ، ويأمل ، ويخطِّط بذهنه بطريقةٍ لتأمين المال بالسطو والسرقة ، والحصول على الجنس بالاعتداء والاغتصاب . . . ، وكانت حركة الزنج في البصرة عام ٢٥٦ هـ .

والخدم في البيوت والقصور صورة مصغَّرة عن هذا ، صورة مصغَّرة لقلَّة عدد الخدم في البيت الواحد أو القصر الواحد بالنسبة إلى عدد العمّال في المزارع الشاسعة ، والضِّياع الواسعة ، وصورة مصغَّرة لأنها تحدث يومياً ، وفي كلِّ وقت ، أمّا في المزرعة فقد لا

تحدث إلاّ قليلاً . الأرقاء ينظرون إلى السيِّدات ، بل إلى الجواري ، ويحقدون على السادة ، لما يُمارسون ، وهم لا يجدون إلى ذلك سبيلاً . والجواري ينظرن إلى السادة ، بل إلى الخدم ، وقادة الهوادج ، فيحقدون على السيِّدات ، لما ينلنه ، ولا يجدن إلى ذلك سبيلاً . . . ، ولا ندري ماذا يتمُّ في الخفاء ، والخدم من الشباب يعملون في القصور بين الخدم من النساء ، وهم يرونهم في أعمال الغسيل ، ومهمّات الطبخ مشمِّرات . والجواري يعملن في غرف النوم ، ويرين السيِّدات في ملابس النوم ، والرجال وقد وضعوا عنهم أكثر الثياب، ويكون الحقد داخل البيوت، وفي حجرات القصور . . . .

ومن يعيش في البيوت والقصور من خدمٍ ، وأرقاء ، وجوارٍ ، ووصيفاتٍ ، يرون الأموال في الخزائن ، والمجوهرات في الصناديق ، فتتوق أنفسهم إليها ، ويرونها أحلاماً ، ويعملون على تحقيق الأحلام ، ولكن أنَّى لهم ، لذا يخطِّطون في أنفسهم ، ويفكِّرون في السطو والسرقة ، ويرون أمامهم حائلاً ، طريقه فتح الخزائن والصناديق ، وصاحب المال نفسه ، أمّا العقبة الأولى فيكون حلُّها بسرقة المفتاح ، وأمّا الطريقة الثانية فليس لها من حلٍّ

سوى قتل صاحب الخزانة ، أو صاحبة الصندوق ، ومن هنا ينشأ حقد أيضاً ، وإن كان ضمنياً ، وقلَّ أن يشعر به صاحب العلاقة .

الإيجابيات :

لم تكن المجموعة التي تحدَّثنا عنها تمثِّل أكثرية سكّان الدولة العباسية ، وإنما كانت أقليةً ، غير أنها ذات تأثيرٍ ونفوذٍ ، لذا فإن دورها كان كبيراً ، والأكثرية من العامة ولكن لا تأثير لها ، لفقرها ، وحاجتها ، وجهلها ، ومع ذلك كانت هناك مجموعة لا بأس بها من أهل العلم ، بذلت كثيراً من الجهد في سبيل إبانة الحقِّ ، ووضعت الكتب ، وصنَّفت في العلوم ، وعملت بالنصح ، وأمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، ولكن لم يظهر أثرها إلاّ على جماعةٍ قليلةٍ ممّن كانوا يريدون الحقَّ ، ويسعون وراءه . أمّا الأكثرية فسادرة في غيِّها ، قد أعمتها شهوتها ، وألهتها أملاكها ، وشغلها هواها ، تُنصَح فلا تستجيب ، وتُدعى فلا تلبِّي ، وتُؤمر فتصمّ آذانها، وتستغشي ثيابها ، وتصرّ، وتستكبر . ونتيجة هذا الظلم فقد شاء الله لها بالانهيار والسقوط ، وتسليط ظالمٍ على ظالمٍ (وكذلك نولِّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) سورة الأنعام ١٢٩ .

وجاء المغول من الشرق ، ودخلوا بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وسقطت الدولة لتكون عبرةً لنا ، لنرى عاقبة الظالمين ، الذي يبتعدون عن منهج الله .

مع كيان الدولة

إذا كان سكّان دولةٍ ما لا ينتجون ما يكفيهم ، لأن أصحاب الأرض لا يعملون ، والعمّال لا يهتمّون ، فلا يُصلحون أرضاً ، ولا يعتنون بزراعةٍ ، وفوق هذا يحقدون على سادتهم ، ويرغبون بالإضرار بهم .

وأصحاب الأملاك الواسعة يُبذّرون ، ويُتلفون الكثير على أشياء لا تأتي بأيٍّ نفعٍ على الدولة ، ويضيعون وقتهم باللهو ، والسمر ، والسماع إلى الغناء ، والحياة بين الجواري والقيان .

والأموال مكدَّسة في الخزائن ، مجمّدة في الصناديق لا يستفاد منها أبداً ، فلا تقام فيها مؤسسات ، ولا تشاد مصانع ، ولا تنشأ مشروعاتٍ تقدِّم للبلاد خيراً ، وللسكّان نفعاً .

والقوافل التجارية توقَّفت تخشى من السطو عليها ، وتخـاف من التـعرُّضِ لرجـالـها ، فالأمن غير مستتب ،

والفوضى منتشرة ، وقطع الطرقات شائع ، ومن يقوم بهذه الأعمال كلِّها ليس نتيجة الحاجة ، وإنما للنيل من الخصم ، وتعطيل أعماله ، وإظهار القوَّة في سبيل السيطرة والتسلُّط ، والوصول إلى المركز المطلوب .

والتنافس شديد بين كبار المتنفِّذين ، على الأرض ، على العبيد ، على الجواري ، على السيطرة ، حتى غدا كلُّ واحدٍ من هؤلاء الكبار يجمع حوله الأعوان ، ويشكِّل مجموعات من العبيد ليقاتل بها خصومه ، ويحاول السيطرة على مراكز القوَّة ، أو على الأقاليم ، والولايات .

والحقد شديد من الأجراء والعبيد في القصور على أهلها حسداً على المال ، وامتلاك الجواري ، وفي الأرض على أصحابها طمعاً في الحصول على الأرض والنساء ، وفي الجيش على القادة رغبةً في الوصول إلى المنصب ، وأملاً في أخذ الرواتب الصخمة لشراء الإماء .

والفوضى منتشرة في الأمصار ، والأمن غير مستتب، والسير في الطرقات غير مضمون ، والخلاف قائم بين الطرق ، وأصحابِ الأفكار ، ويصل أحياناً إلى مرحلة الصراع ، وقد يمتدُّ إلى السيطرة على السلطة .

والجيش منقسم بين أهل الأهواء ، وأصحاب الأفكار ،

والعصبيات العرقية ، والرجالات المتنفِّذين ، وربما كانت المواقع غير متفاهمة بعضها مع بعض .

وفي بعض الأمصار إماراتٌ أقرب ما تكون إلى الاستقلال ، وتدخل في صراعٍ بعضها مع بعض ، وتنازع الدولة العبّاسيَّة أحياناً ، وربما جرت صداماتٌ بين الطرفين .

ويشكِّل اللهو الجزء الأكبر من حياة الأفراد ، ولا يشغل التفكير في الاستعداد لمواجهة الأعداء إلاّ القليل من تخطيط المسؤولين أو من حياة الأفراد ، وأقلُّ منه التفكير في الجهاد والعمل على نشر الإسلام .

وأخطر من كلٍّ هذا كان ترك المنهج الإسلامي ، الذي قامت الدولة منذ البداية على أساسه ، بل ورثته ، وتدَّعي أنها تسير عليه ، وأنه قوام حياتها ، وأنه من عقيدة الأمة جميعها .

فما هو قوام دولةٍ تخالف نظامها الذي تقوم عليه ، ومنهجها الذي هو عماد حياتها . وأوضاعها الاقتصادية متدهورة ، ويقوم التنافس بين كبار المتنفِّذين فيها ، وينشأ الحقد بين فئاتها ، وأبناؤها لا يعملون ، كسلاً وبطراً ، والعمل بيد غيرهم ، والفوضى منتشرة ، والجيش مقسَّم

الأهواء ، والأمصار متنازعة بعضها مع بعض ، وهمٌّ الناس وشغلهم الشاغل اللهو ، وجمع المال .

هل تستطيع دولةٌ مثل هذه أن تستمر حسب التقدير المادي ، وهي تقوم على أعوادٍ مكسَّرةٍ ، وقد جاءتها ريحٌ عاتيةٌ ؟ .

هل تستطيع دولةٌ مثل هذه أن تبقى على هذه الصورة حسب السنن الكونية ، وقد كفرت بأنعم الله ، فأبطرتها النعمة ، وأتلفت أموالها ، وأضاعت وقتها . . . ، وهذا شأن الدولة العبّاسيَّة في أواخر عهدها ، فزالت ودالت أيامها .

مع حضارة الدولة

رأينا أن الدولة العبّاسيَّة في أواخر عهدها كانت تقوم بهيكلٍ عظيمٍ على أعوادٍ مكسَّرةٍ ، ويعيش سكّانها بترف ولهو بقلوبٍ محطَّمةٍ ، فهل كان ذلك المظهر الخارجي حضارةً كما يدَّعي الماديون ؟ أم أن ذلك الادّعاء زورٌ وكذبٌ علينا لتضليلنا ؟ وقد صدَّقنا - مع الأسف - ذلك الكلام الزور . . . .

هل الحضارة أن يعتمد سكّان دولةٍ على غيرهم في فلاحتهم ، وزراعتهم ، وصناعتهم ، وتجارتهم ، وإدارتهم ، ويعيشون هم على حسابهم مرفَّهين مترفين ؟ أي أن تعيش جماعةٌ برفاهيةٍ على حساب غيرها ، فإذا ما ترك الغرباء المكان انهار البناء الحضاري . أو إذا قاموا بحركةٍ تداعى ذلك الكيان ، كما حدث في ثورة الزنج عام ٢٥٦ هـ .

وهل الحضارة أن تُتخم البطون ، وتُلقى بقايا الأطعمة

بكميات كبيرةٍ على الدمن ، وإلى جانب ذلك بطونٌ خاويةٌ ، وقلوبٌ مليئةٌ بالكراهية ، مشحونةٌ بالحقد ؟ .

وهل الحضارة أن نركب أفضل المطايا ، ونزيِّنها بأحسن الزينات ، ونستخدم أجمل هودجٍ ، وكلُّ ذلك من صنع غيرنا ، وفضل غيرنا ، نلقي بها إذا تعثَّرت ، ونرمي بالهودج إذا كُسرت خشبةٌ منه ، حيث لا نعرف لها بدلاً ولا إصلاحاً ؟ .

وهل الحضارة أن تشاد لنا القصور الفخمة ، ونجعل من ردهاتها حظائر ، ومن قاعاتها حمّامات ، وندَّعي أننا نعيش في حضارة ؟ .

وهل الحضارة أن نقضي وقتنا باللهو واللعب ، وحفلات السمر ، وسماع أغاني الجواري الحسان ، وندَّعي أننا من أهل المستوى الراقي ؟ .

وهل الحضارة نظم الشعر ، وقول الغزل ، بالمذكر والمؤنث ، وإلقاء الخطب ، ومعسول الكلام ، دون أيِّ فعلٍ، أو القيام بأيِّ عملٍ يخدم الأمة ؟ .

هذا ما كانت عليه الدولة العبّاسيَّة في أواخر عهدها ، وهذه الظواهر هي التي جعل لنا الماديون منها حضارة ، وعدَّدوا لنا مظاهرها من بناءٍ وقصورٍ ، وغناءٍ وطربٍ ،

وشعرٍ وغزلٍ ، وفنٍّ ونحتٍ ، ورسمٍ وتصويرٍ ، وجوارٍ وإماء، وموسيقى ورقص ، ودروبٍ تمرُّ منها القوافل ، وقنواتٍ تجري فيها المياه . . .   ، وبعد ذلك قلوبٌ خاويةٌ ، وعقولٌ لاهيةٌ ، وأفكارٌ طائشةٌ . . .   .

لا ، ليست هذه هي الحضارة ، ولا هذه هي مظاهرها البائسة . إن الحضارة تكمن في العقول التي تفكِّر فتُبدع، وتعمل فتبتكر ، والقلوب التي تشعر بحبٍّ الآخرين ، والأفئدة التي تحسُّ بالأمن والطمأنينة ، وأنها تساكن البشر لا تعيش بين أنيابٍ وذئابٍ ، والنظام الذي ينشر العدل ، ويسوِّي بين الناس ، وفي المنهج الذي يقدِّم للناس الأسلوب الصحيح لنظم الحياة جميعها .

ولنعطِ مثلاً لتوضيح حقيقة ما يشاع أن الحضارة الإسلاميَة قد بلغت أوجها أيام الدولة العبّاسيَّة ، حيث دوَّن الأعداء الكثير من الكتب التي تكرِّر هذه المغالطة .

وُجدت أسرة نشيطة ، كثيرة العدد ، دأبت على العمل ، أفرادها متعاونون أشد التعاون ، كأنهم كتلة واحدة ، متحابُّون أشدَّ المحبَّة كالجسد الواحد ، يريدون الخير للناس جميعاً ، ويعملون لذلك كلَّ جهدهم ، ويحبُّون للآخرين ما يحبُّون لأنفسهم ، لذا أحبَّهم الناس ، وأقبلوا

إليهم ، وعملوا تحت قيادتـهم ، فعدلـوا ، وسووا بينهم جميعاً ، لا يأكلون حتى تأكل رعيتهم ، ولا ينامون حتى تنام ، يسهرون على حمايتها ورعايتها ، وقد زرعوا فنمت زروعهم ، وأثمرت جنانهم أيام أحفادهم .

وأتى الأحفاد أيام الحصاد فجنوا ، فأثروا ، وشادوا ، وأُترفوا ، وبذَّروا الأموال ، وعاشوا في اللهو ، فلم يزرعوا ، ولم يسقوا ، فأُتلفت الزروع ، وتداعت الأبنية ، وأُهدرت الأموال ، وأخيراً ضاع كلُّ شيءٍ .

هل كان الفضل لمن زرع ، وتعهَّد ، أم لمن جنى ، ثم أتلف ؟ لا شكَّ أن الجواب هو أن الفضل لمن بذل ، وغرس ، وقدَّم . غير أن الماديين يعدُّون الفضل لمن حصد ، وإن لم يزرع شيئاً ، ولمن ضيَّع ، وإن لم يبذل شيئاً .

لقد قام المسلمون الأوائل بفتوحاتهم ، فدخلوا البلدان ، ونشروا لواء العدل ، وطبَّقوا النظام ، وساد الأمن ، وعمَّ الرخاء ، فزرعوا الأرض ، وجاءتهم الأموال ، فأقاموا المشروعات ، وأخذت الأرض تُنتج ، وتُعطي من خيراتها ، وتُخرج كنوزها ، في الوقت الذي انتهى في القرن الثالث الهجري .

أخـذ الناس أيـام الدولة العبّاسيَّة الأخيرة يحصدون ما

زرع أسلافهم ، ويجنون ما غرس من سبقهم ، فعدٌ الأعداء للمغالطة أن الحضارة نتاج من حصد ، وإن كان قد بدَّد الفراس ، والواقع أنها جهود من زرع ، وحصل على الحبِّ ، وتعهَّد النبت . فالحضارة بلغت أوجها أيام رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، وفي عهد خلفائه الكرام، وعصر الفتوحات الواسعة ، وآتت أُكلها في العصر العبّاسي ، ثم انهارت أيام العبّاسيين الأواخر ، عندما ابتعدوا عن منهج الإسلام ، وتخلّوا عن نظامه .

أواخر الدولة الإسلامية في الأندلس

كان المسلمون في الأندلس يعاصرون الدولة العبّاسيَّة في المشرق ، فأينعت الحضارة في أول عهدهم بعد أن استقرُّوا ، وتوقَّفت فتوحاتهم ، وكانت من غراس أسلافهم، وهي تشبه ما كانت عليه الحضارة في المشرق ، وإن كانت قد زادت عليها في نقطتين ، أولاهما الفن المعماري الذي بلغ شأواً بعيداً ، وخاصةً في فنٍّ انعكاس الصوت ، حيث كان المصلُّون في مسجد قرطبة يسمعون صوت الإمام في كلِّ جانبٍ منه رغم اتساعه الكبير الذي لا يمكن أن يصل إليه صوت الإمام في الحالة العادية ، ولم تتداخل انعكاسات الأصوات لميل زوايا تيجان الأعمدة بنسبٍ معيَّنةٍ ، وكذلك غرفة السفراء في غرناطة ، حيث كانت تصل أصوات السفراء الخفية إلى أذان حاجب الخليفة ، فينقلها إلى الخليفة قبل أن يلتقي بالسفراء ، وبذا

يعرف رغباتهم ، فلا يستطيعون إخفاءها عن الملك ، وتفوت عليهم كلَّ فرصةٍ للكيد . أمّا النقطة الثانية فكانت في فنون الشعر ، حيث كثر فنُّ الوصف ، وفنُّ الموشَّحات. ولكن بقية العوامل الأخرى التي أدَّت إلى انهيار الدولة وسقوطها فتكاد تكون واحدةً من لهوٍ وتبذيرٍ وانقسامٍ . ويزيد عليها نقطتان لم تكونا موجودتين في المشرق ، وهما : ممالأة النصارى ، والتحالف مع طغاتهم. وذلك أنه كان قد بقي في الأندلس بعد فتحها مجموعة من النصارى في جهاتها الشمالية حيث الجبال الوعرة والمواقع الحصينة ، تركهم المسلمون من باب الحرية الدينية بالنسبة لأهل الكتاب ، ومن يلحق بهم من المجوس، ومن باب أنه لا يمكنهم فعل شيءٍ بعد فتح الأندلس ، واستمرارية الفتح في بلاد الفرنجة ، وسيسلمون في النهاية لمعرفة صلاحية الإسلام عن قرب . غير أن الفتح لم يستمرّ ، إذ لم يلبث أن توقَّف ، كما أن المنهج الإسلامي لم يعمل به بعد مرور مدّةٍ من الزمن ، وهذا ما جعل النصارى يتمسَّكون بعقيدتهم ، ويحافظون على مواقعهم لمدِّ أوربا لهم ، وضعف أمر المسلمين ، وقوي أمر النصارى ، وجاءهم الدعم والمدد من بلاد الفرنجة وبقية

بلدان أوربا النصرانية حتى صار لهم شأن ، وغدوا بعد مدّةٍ ينازلون المسلمين ، ويتغلّبون عليهم أحياناً ، ويضمّون إليهم جزءاً بعد آخر حتى قوي أمرهم ، واتسعت رقعة الأرض التي يبسطون نفوذهم عليها . وزاد ضعف المسلمين ، وقام ملوك الطوائف على أرض الأندلس ، يسيِّطر كلٌّ منهم على جهةٍ ، وقد لا تتعدّى المدينة وأرباضها أحيانا ، وهذا ما قوّى عليهم عدوَّهم ، فصار بعضهم يستعين بطاغية النصارى على بعضهم الآخر ، فيقدِّم له الطاعة ، ويتنازل له عن بعض أجزاء مملكته ليساعده على أخيه ، أو يعقد معه حلفاً لينصره على سلطانٍ ثانٍ ، وهذا ما جعل العامة وأصحاب النفوذ على حدٍّ سواء يعملون على ممالأة النصارى ، ويسعى حكّام الأندلس من المسلمين على عقد أحلافٍ مع الطاغية النصراني .

مُمَالَأَةُ النصارى :

لمّا رأى سكّان الأندلس تأخُّر المسلمين ، وتراجعهم الدائم ، وقوّة النصارى ، وتقدّمهم المستمر ظهر خوف أصحاب المصالح ، فرغبوا في ممالأة النصارى ، حرصاً على مصالحهم ، وخوفاً على مراكزهم فيما لو دخل

النصارى بلدانهم ، وحكموا مدنهم ، وأصبحوا رعايا لهم ، فيريدون منذ الآن أن تكون لهم أيادٍ بيضاء عند النصارى، أو على الأقل ألاّ يُعرفوا بمعاداتهم الصريحة لهم ، وهذا في الواقع ليس إلاّ ضعفاً بالإيمان . لقد برز النفاق ، وظهرت مفاهيم جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ونشأت آراء حديثة لم يسمع بها من قبل ، وكلُّها تدلُّ على ضعف الإيمان الذي أورث الخوف ، ودبَّ الهلع في النفوس ، فانخفضت الروح المعنوية ، بل لم تعد هناك إمكانيةٌ على المقاومة ، أو استطاعةٌ على الثبات ، ولم تعد هناك موانع لديهم لطلب حماية النصارى ، والعيش في كنفهم ، والدخول في خدمتهم . ومن أصحاب المصالح انتقلت إلى العامة الذين رأوا من كانوا بأعينهم كباراً قد دبَّ الهلع في نفوسهم ، فخافوا ، وأخافوا . ومن هذه الأفكار الغريبة التي ظهرت :

أولاً : يصحُّ الزواج من الفتيات النصرانيات ، وطعام النصارى حلٌّ للمسلمين، ويجوز بقاؤهم في ديار المسلمين، والسكن معهم ، إذن فالنصارى ليسوا كفّاراً . هكذا استنتج الذين يريدون أن يُغالطوا الناس ، وبالأحرى الذين يريدون أن يصلوا إلى ما في أذهانهم .

لقد نسوا أو تناسوا قول الله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كلِّ شيءٍ قدير) سورة المائدة الآية ١٧ . وقوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربِّي وربَّكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلهٍ إلاّ إلهٌ واحدٌ وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ) سورة المائدة الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

ولقد نسوا أن الكفر أنواع ، منها الكفر الإنكاري ، وهو أن يعترف المرء بالله ولكن لا يقرُّ ولا يعترف بوجوده، حيث كانوا يقولون : (ما نعبدهم إلاّ ليقرِّبونا إلى الله زلفى) سورة الزمر الآية ٣ . ومنها الكفر الجحودي ، وهو أن يعترف المرء بقلبه بوجود الله ، ولكن يأبى أن يقرُّ ويعترف بلسانه ، وذلك شأن أهل الكتاب . ومنها كفر العناد ، وهو الاعتراف بالله بالقلب واللسان ، ولكن

يخشى أن يعلن ذلك خوفاً من الملأ ، ولا يدين بذلك ككفر أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم ، عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . ومنها كفر النفاق ، وهو الاعتراف بالله باللسان ، وعدم الاعتقاد بالقلب .

ثانياً : إن الإنسانية لتجمع بين المسلم وبين أهل الأرض جميعاً من أصحاب الديانات كلِّها ، فلماذا هذا التعصُّب الذي يبديه بعض المشايخ ، ويحاولون دائماً الحطَّ من شأن أهل الديانات الأخرى ، فنحن إخوة في الإنسانية ، وأهل الكتاب من يهودٍ ونصارى أصحاب دياناتٍ سماوية ، فيجب ألاّ نتحامل عليهم . والقصد من هذا أن لا يجد الناس ذلك التفاوت الكبير بين المسلمين والنصارى من حيث العقيدة - حسب ظنهم - لجهلهم ، وأنه من الإمكانية العيش معاً ، وحتى في ظلٍّ حكمٍ نصراني ، فلا داعي للقتال ، وإراقة الدماء ، والمسالمة أمر محمود .

ثالثاً : إن الديانات السماوية من عند الله ، فأصحابها يعترفون بالله ، ويعبدونه ، ويدينون له ، فليس هناك من فروق كبيرة بين المسلمين وأهل الكتاب ، وإنما المشايخ هم الذين وسَّعوا الشقَّة ، وأوجدوا هذه الخلافات القائمة ،

والتي لم نكن لنحسَّ بها لولا هؤلاء المشايخ .

رابعاً : إن أرض الأندلس كانت في الأصل للإسبان النصارى ، ودخل المسلمون عليهم ديارهم ، فاضطرَّ الإسبان للتجمُّع في الشمال في تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، وهذا لا يصحُّ - حسب زعمهم - لجهلهم ، فالإسلام ليس ديناً عدوانياً ، والجهاد إنما هو ردٌّ على العدوان ، ودفاع عن النفس والأوطان ، وليس هناك ما يمنع من الرجوع إلى الحقِّ ، وترك الخطأ الذي قام به الفاتحون الأولون . فلماذا إذن نحول دون عودة هؤلاء الإسبان إلى مناطقهم ، والسكن إلى جانبنا ؟ .

هذه أقوالٌ على درجةٍ من الخطورة لما فيها من جهلٍ بالإسلام يغيِّر المفاهيم ، ويبدِّل الحقائق ، ولما فيها من خطرٍ على عقيدة الأمة وكيانها .

هذه المغالطات التي بثَّها مشايخ السوء وأصحاب المصالح جعلت المسلمين يتراخون في أمر الجهاد ، ويبتعدون عن النفير في سبيل الله ، كما شجَّع ملوك الطوائف على مهادنة طاغية النصارى ، وتحالف بعضهم معه . كما أثارت هذه المغالطات الشكوك والكراهية بين المسلمين ، إذ أن أهل العلم قد كرهوا مشايخ السوء

الذين يفتون حسب هوى كلّ طاغيةٍ .

إن الذين يتكلّمون بغير علمٍ لن يضرّوا إلاّ أنفسهم في الآخرة ، أمّا في الحياة الدنيا فإنهم يضرّون الأمّة ، بإشاعة النفاق ، وتحطيم الروح المعنوية ، ثمّ يضرّون أنفسهم على أنهم جزء من الأمّة . وعندما يكثر أمثال هؤلاء في الأمّة ، ويعتلي كلٌّ منهم منبراً ، ويعطي الفتاوى، ويقدِّم الأراء القاتلة دون درايةٍ ولا علمٍ فإن هذا دلالةٌ على احتضار الأمّة وقرب سقوطها وانهيارها .

وكان الجهاد قد توقّف منذ مدّةٍ ، وأخلد الناس إلى الأرض ، وانصرفوا إلى اللهو ، وإضاعة الوقت ، وترك المنهج الإسلامي ، والابتعاد عن النظام ، لذا فقد ضعفت الروح المعنوية عندهم ، وارتفعت عند النصارى الإسبان . . . ، وشاء الله أن يعاقبهم بتقصيرهم ، وأن يكون لنا هذا درساً وعبرةً على مدى الأيام .

الخاتمة

ويمكن أن نستنتج ممّا سبق :

١ - إن العمل واجب على كلِّ فردٍ قادرٍ في الأمّة ، ولا يصحُّ لأحدٍ أن يتقاعس أو يتوانى بحجة الغنى ، وعدم الحاجة . وكلُّ تقصيرٍ أو قعودٍ يعود بالضرر على الأمّة ، ويكون له أثرٌ سيءٌ ، وكلّما زاد عدد العاطلين كانت أقرب إلى الانهيار .

٢ - إن التبذير في العمران ، وكثرة الإنفاق على الزخرفة والتزيين ، وكلّ ما لا حاجة فيه ، إنما هو إضاعة لمال الأمّة ، وحرمان لمشروعاتها من النمو والتطوّر .

٣ - إن عدم استثمار الأرض بشكلٍ جيدٍ ، إنما هو حرمان للأمّة من بعض الإنتاج ، وإضاعة للطاقة والجهد البشري ، وتبديد لهما .

٤ - إن استخدام العمّال في أمورٍ غير منتجةٍ، كإبقائهم

في حراسة القصور ، والمزارع ، وكالمرافقة ، إنما هو تبديد لجهود الإنسان ، وحرمان الأُمَّة من إنتاجهم .

٥ ـ تقع تربية الأولاد على عاتق الأمهات ، وكلُّ تقصيرٍ في هذا الشأن ، كإلقاء تبعة التربية على عاتق المربِّيات إنما فيه إفساد لطباع النشء ، وهذا له تأثيرٌ كبيرٌ على الأُمَّة يجعلها تُسرع الخطو نحو الضياع ، وبالتالي نحو السقوط .

٦ ـ لا يصحُّ تكديس الأموال وتجميدها ، ولا يجوز صياغتها على شكل حُلي وجواهر تُخزن في الصناديق ، فتحرم الأُمَّة من قيمتها . إن ذلك كله يعطِّل حركة المال ، ويحول دون الاستفادة ممَّا قد تعطيه بإقامة المشروعات الإنمائية .

٧ ـ إن التفكير الدائم بالجنس ، والسعيِ وراءه ، وتهيئة الجو في البيت ، وفي الوسط المحيط ، ليؤدِّي إلى الفساد، وضياع الوقت ، وترك العمل ، وتبذير المال ، وانشغال الفكر . . . ، وهذا كلُّه ينعكس على الأُمَّة وإنتاجها ، وطاقة أبنائها .

٨ ـ إن في الخلوة بين امرأةٍ وغير ذي محرم في قيادة المطية حرمة ، وفتك بإمكانات الشباب ، ونشر للمفاسد ،

وهذا يهدِّد الأمَّة .

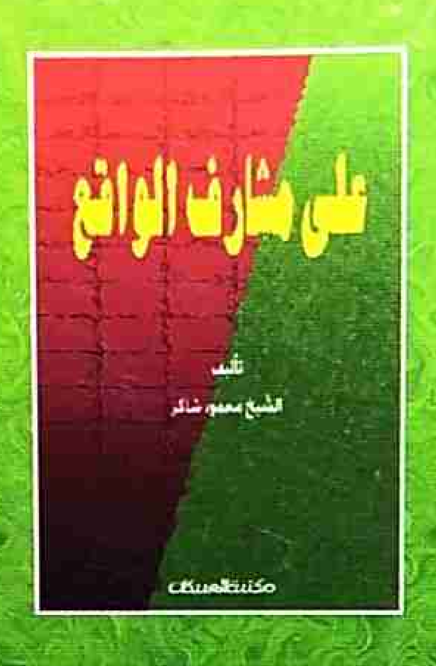
٩ - وإن كثرة اللهو وإضاعة الوقت يفسد القلب ، ولهذا خطره على الأمة .

١٠ - إن الحقد إذا استشرى في النفوس ، وامتلأت القلوب كراهية تساقط أفراد المجتمع بعضهم إثر بعض حتى تنهار الدولة .

١١ - إن الحضارة ليست بالمادة وتأمين مظاهرها من قصورٍ ، وأثاثٍ ، وأطعمةٍ ولباسٍ ، وأموالٍ وإنفاقٍ ، وإنما بالعقلية والتفكير ، وسيادة الأمن والاستقرار ، والحرية والاطمئنان .

وأخيراً نرجو من اللّه أن نكون قد وفِّقنا في إعطاء فكرةٍ عمّا يُشرف عليه واقعنا من خلال تاريخنا ، كما نرجو أن يسدِّد خطانا ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربِّ العالمين .

الفهرس



هذا الكتاب

يعـرض هذا الكتـاب لبعـض المواقف واللقطات من تاريخنا الحافل بالعـبر والعظات؛ لعلنا نأخذ بها فـنسير على درب التـقدم والرفـعـة، ونتجنـب مواقع التـراجع ومـواضع الذلة، فـمعـرفـة مواقـع الزلل تبعـد القـدوم نحـوها، والعلم بنقـاط التـردي يُجَنِّب الإقـبال إلـيهـا، والسير بالطريق السليمة توصل إلى السمو..

الناشر